إنعكاس المكون المعرفى لثقافة الفقراء على المبدأ العمرانى المعاصر

رصد وتوثيق لطرح جديد لعمارة الفقراء

إعداد

م.م/ هشام محمد طاهر الليثى

مدرس مساعد بقسم العمارة
بالمعهد العالى للهندسة المعمارية بمدينة ١٥ مايو
(مسجل لدرجة الدكتوراه بقسم الهندسة المعمارية بكلية الهندسة جامعة القاهرة)

م.م/ عبير محمد رضا الشاطر

مدرس مساعد بقسم العمارة
كلية الهندسة جامعة عين شمس
(مسجل لدرجة الدكتوراه بقسم التخطيط والتصميم العمراني بكلية الهندسة - جامعة عين شمس)

المحور الرئيسى للبحث

الإطلالات الجديدة (النظرية والتطبيق)

كلية الهندسة - جامعة القاهرة
الجيزة - جمهورية مصر العربية

انعكاس المكون المعرفى لثقافة الفقراء على المبدأ العمرانى المعاصر

رصد وتوثيق لطرح جديد لعمارة الفقراء

م.م عبير محمد الشاطر (مدرس مساعد بجامعة عين شمس)
م.م/ هشام محمد طاهر الليثى (مدرس مساعد بالمعهد العالى للهندسة بمدينة ١٥ مايو)

المستخلص

يطرح البحث أهمية قراءة **"الفقر"** كنسق ثقافى ذات مضامين متعددة ومعقدة ذات علاقه بتوفير المأوى، من خلال دراسة المكونات المعرفية لثقافة الفقراء، كمدخل لإنتاج "عمارة للفقراء"، عن طريق الإستفادة من الرصيد الثقافى للمجتمع المصرى الذى يشجع على التعاون والتكامل والمؤاخاه، كما أن تمثُل النماذج الغربية لمفهوم الفقر لم يكن متجذراً على المستوى الشعبى، إذ مال النموذج الشعبى إلى الإختلاف عن غيره فى جملة من القضايا والإشكاليات مثل الموقف من الهوية أو التراث أو الوافد أو الدينى أو الإقتصادى أو غيرها من المتغيرات.

فغاية هذه الورقة تقديم نموذج لتفسير ملامح الثقافة الشعبية، قائم على جملة من العوامل المتداخلة من خلال أشكال التعبير عن ذاتها، بدءاً بالجذور والعادات والتقاليد التى قدمت ميراثاً شعبياً مازال حياً فى نفوس المصريين وممارساتهم، ورد هذه الأنساق الثقافية إلى مكونات رئيسية مؤثرة مثل المكون الدينى والإقتصادى والإجتماعى، وإسقاط هذه المكونات المرجعية على المكون المعمارى والشعبى لطرائق وممارساتهم البنائية والذى يحوى صفة الملائمة .

١- تمهيد

"عالم بلا فقر حُلم جميل تسعى الشعوب إلى تحقيقه على مسرح الحياة.."

وبوفاه المعمارى (حسن فتحى) ماتت معه تجربته المعنية بتقديم (عمارة للفقراء)، وتم طوى الملف نهائياً دون إعادة قراءته مرة أخرى لتحويل ذلك الحلم إلى حقيقة، وذلك بسبب تجاهلِ الكثير لقضية الفقر وحقوق الفقراء، رغم كونها قضية العالم الشاغلة اليوم كأحد ركائز مثلت التخلف المعوق للتنمية- بجانب الجهل والمرض، إلى أن منحت جائزة نوبل للسلام فى عام ٢٠٠٦م إلى أحد من حاولوا قهر الفقر وتحقيق التنمية الحقيقية بأحد البلدان الإسلامية الناميةوهو الدكتور محمد يونس[١]- فكان هذا دافعاً لأعادة طرح هذه الإشكالية فى معمارنا المعاصر من واقع دراسة الباحثون لجذور المرجعية المعرفية الإسلامية.

[١] البروفيسور "محمد يونس" أستاذ علم الإقتصاد بإحدى جامعات بنجلاديش، ومؤسس بنك"جرامين"Grameen Bank أو ما إشتهر بإسم "بنك الفقراء"، جائزة نوبل للسلام لعام ٢٠٠٦ والتي منحتها له الأكاديمية السويدية. مناصفة مع بنك جرامين الذى يرأسه، وذلك نظراً لجهود بنكه الرائدة في مكافحة الفقر في العالم، وإقراض الفقراء وإبعاد خطر الفقر عن ملايين البشر. شكل(١-١٣) الدكتور محمد يونس قاهر الفقر فى بنجلاديش والملقب بـ:(صديق الفقراء) والحائز على جائزة نوبل للسلام فى عام ٢٠٠٦ .

١-٢ حيثيات البحث (الإشكالية)

فرضت المعايير العالمية وثقافاتها الغربية، والتى وضعتها المؤسسات الدولية المهيمنة والمرتكزة فى مفاهيمها على ظروف ورؤى العالم الغربى الغنى قيمها المتناسبة مع طبيعتها وحاجاتها الإقتصادية والسياسية ومعطياتها الإجتماعية والبيئية، فإن المجتمعات ما قبل الحضارة الغربية كانت تحاول أن تكيف نمط حياتها على حسب محيطها وبيئتها، وعندما جاءت الحضارة الغربية أرادت أن تكيف المحيط والبيئة وفق نمط حياتها".[٢]

ولأن تعميم النمط الغربى مستحيل عملياً، فإن البحث عن الخصوصيات الثقافية للمجتمعات العربية والإسلامية ومنظومتها الإجتماعية وإحياءها هو إثراء للثقافة وإمساك بالخيط الإنسانى المفتقد، والذى كان سراً من أسرار بقاء الإنسان حياً على الرغم من كل الضغوط التى يواجهها. لذا جاءت أهمية قراءة "الفقر" كثقافة ذات مضامين متعددة ومعقدة ذات علاقته بتوفير المأوى، تجعلنا نضع اللبنة الأولى فى حل مشكلاتها.

١-٣ تساؤلات بحثية:- لماذا ثقافة الفقراء أو البسطاء؟
(القوى الفاعلة لمناهضة الهيمنة الفكرية الغربية)

تم إختيار دراسة هذا النسق الثقافى والخاص بثقافة الفقراء أو ثقافة البسطاء فى المجتمع المصرى لأن عمق التجربة المصرية حضارياً وثقافياً إرتكزت فى غالبيتها على هؤلاء الفقراء، فصار الفقراء بثقافاتهم هم المعين الأوضح للرصيد الثقافى والحضارى المتوارث، إذ مال النموذج الشعبى إلى الإختلاف عن غيره فى جملة من القضايا والإشكاليات مثل الموقف من الهوية أو التراث أو الوافد أو الدينى أو الإقتصادى أو غيرها من المتغيرات.

كما أنه من الثابت فى بعض المجتمعات النائية والتى استوطن فيها أناس نراهم من البسطاء أو من الفقراء، كصحراء مصر والواحات، حيث لم يكن لهؤلاء الناس مطمع لدى الإستعمار للذهاب إليهم، لأنهم رُحل، وقد صنعوا البيئة السكنية الخاصة بهم والتي تتفق مع تقاليدهم الإجتماعية والدينية ومناخهم الذى يتأثرون به، وكيف كيفوا حياتهم بالنسبة للمبانى والخامات التى تم البناء بها، فأصبحت المبانى قريبة جداً لإعطاء الشعور بالأمان، وكيف أن الإتصال بين الأبنية عن طريق القنوات والممرات والساباطات المغطاه والتى تعطى أيضاً تلطيفاً للهواء- شكل (١).

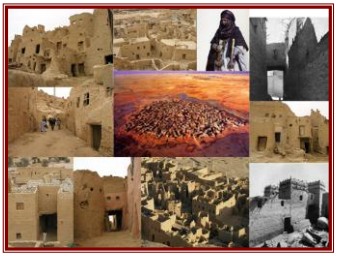

شكل (١): اختلاف النموذج الشعبى لعمارة الفقراء عن غيره فى كثير من الاشكاليات، والتى تم صياغتها لتناسب معطيات بيئتهم.

وعليه فإن دراسة "ثقافة الفقراء" مدخلاً هاماً جداً لإنتاج "عمارة للفقراء"، وهو ما أخفق في دراسته حسن فتحى لتتحول عمارته فيما بعد إلى "عمارة الأغنياء".

[٢] إعادة إنتاج التراث ص ١١ .

١-٤ هدف الدراسة

تهدف الدراسة إلى إلقاء الضوء علي المفاهيم الخاصة بعمارة الفقراء وصياغة مفهوم ثقافة الفقر والفقراء وثقافة البسطاء، وذلك إثارة انتباه المهتمين بالثقافة الشعبية وخصوصاً التراث العمراني إلى وجود عناصر عمرانية يمكن ان تمثل النواة الثقافية للمجتمع المصري. وكذلك وضع نموذج ثقافي يخص المجتمع المصري.

٢- مفاهيم: ثقافة الفقر وثقافة الفقراء

من الأهمية أن يفض الإلتباس الكبير بين مفهوم ثقافة الفقراء وبين ثقافة الفقر وما بينهما من تداخل.

فمفهوم ثقافة الفقر يشير إلي أن الفقر ليس مجرد حرمان إقتصادى وتفككاً إجتماعياً، ولكنه يخلق أسلوب حياه له صفة الانتظام والرسوخ النسبى، فالفقراءلهم صفات دامغة ملتصقة برأسهم، وهى أنهم لا يوجد عندهم حساب للمستقبل.

وقد يعبر "ثقافة الفقر" عن نقص مشاركة الفقراء فى النظم الإجتماعية الرئيسية، ووجود أنماط خاصة للحياه العائلية، فهي تنهض على العديد من العوامل تأتى فى المحل الأول منها العوامل الإقتصادية، يليها عوامل إجتماعية نتيجة تفاعل الفرد مع مجتمعه، ثم عوامل نفسية تتعلق بتوافق الفرد مع نفسه ومع مجتمعه إجتماعياً ونفسياً، وهى عوامل ليست منفصلة بل متداخلة وتؤدى لشعور الفرد بالتدنى وضياع قيمة التفاعل.

أما ثقافة الفقراء فيطلق للتعبير عن منظومة ثقافية متكاملة لدى الجماهير تتفاعل وتتلائم مع الواقع والتاريخ والبيئة والمعتقد والمتغيرات الأخرى[٣].

وتعتبر أساليب التكيف مع الفقر أحد السمات المميزة لثقافة الفقراء لما لها من أساليب إبداعية أنتجها الفقراء من واقع ظروفهم للتوافق مع أوضاعهم الإقتصادية وما يشعرون به من حاجة دائمة وتطلعات مستمرة ورغبة فى التمثل بالطبقات العليا فى نفس الوقت مع ضيق ذات اليد وحالة الفقر النسبى التى يعيشونها.

بينما تختلف المنطلقات فى مفهوم ثقافة الفقراء، وحيث لا توجد حالة مرجعية أو معيارية من خارج النموذج الثقافى ذاته؛ فإن الكشف عن المكونات والعلاقات داخل النموذج الثقافى المقترح الذى يخص مجتمعاً دون الآخر يعد محاولة جادة لإكتشاف الجذور المختلفة للظاهرة الثقافية. كما أن فهم البنية الثقافية هو مقدمة طبيعية لفهم توجهات ومواقف المجتمع المختلفة من أى ظواهر تواجهه.

[٣] هذه المنظومة المركبة لا يُدعى بالقدرة تامة على الإحاطة بكل مفرداتها وأبعادها إذ أنها منظومة من أكبر وأعقد المنظومات الثقافية الشعبية.

شكل(٢) يتعرض الفقراء فى مراحل عمرهم المختلفة لجهود مكثفة من التنشئة الإجتماعية بشكل متوازن، نتج عن ذلك محاولتهم تأكيد ذاتهم رغم إفتقارهم للمال، بإنجاب عدداً كبيراً من الأطفال يؤكد بهم ذاتهم من ناحية، كما بالإضافة إلى كونهم ميزة إقتصادية لهم.

٢-١ المكونات المعرفية لثقافة الفقراء

إن ثقافة أى مجتمع هى محصلة الافكار السائدة بين أعضائه، وتظهر هذه الثقافة فى السلوك الجماعى للمجتمع، ولكل ثقافة مظاهر وأبعاد تختلف من جماعة إلى أخرى، حيث تتأثر فيها عوامل عديدة منها:

شكل (٣): المكون الديني سبباً رئيسياً فى الأحداث التاريخية التى تتعلق بمقاومة المنطقة العربية وينعكس هذا على تعاملهم مع الواجهات.

٢-١-١ المكون الدينى لثقافة الفقراء

إن المكون الدينى هو عنصر أساسى فى ثقافة الفقراء والأغنياء على السواء، لأن الثقافة أوالمكون الدينى لثقافة الإنسان يرتبط بفطرته أياً كان هذا الإنسان فقيراً أو غنياً، فالفارق بين الإثنين هو معيار الإلتزام بعناصر المكون الدينى فى الثقافة، لأننا نجد الإنسان فى شتى الحضارات فى ثقافته المكون الدينى بطريقة لا شعورية، والتى تم صياغتها بفعل الموروثات من العادات والتقاليد.

٢-١-٢ المكون الاقتصادى لثقافة الفقراء

يختلف تعريف الفقر طبقاً للمكون الاقتصادي للأفراد؛ ففى المرجعيات الغربية يرى علماء الاقتصاد أن من يقل دخله عن أربعة دولارات يعتبر فقيراً، وقد يكون هذا المقياس مناسباً لبعض البلاد ولكنه لا يتناسب مع بلداناً أخرى.[٤]

فالفقر ليس وضعاً إقتصادياً فقط، ولكنه وضع من أوضاع البشر يتصرف فيه الإنسان بفقر ويفكر بفقر فينتج أفكاراً تؤدى إلى الفقر، أو بمعنى آخر فالفقر مرض يصيب العقول والخيال كما يصيب الإقتصاد، وهناك فقراء يعيشون فى ظل أوضاع إقتصادية غاية فى الصعوبة ولكن ثرائهم الروحى يتيح لهم أن يستمتعوا بحياتهم ويمتعوا من حولهم، والفقير من هذا النوع هو :"فقير إيجابى" وله فلسفته الخاصة فى الحياة.

وتقوم الجوانب الإقتصادية الأساسية فى ثقافة الفقر على عدة مبادئ تُوضح في النقاط التالية:

- ثقافة الإكتفاء بالقليل-شكل (٤)-(٥).
- الاهتمام بالكمية والسعر قبل الجودة.
- إنتشار ثقافة المستعمل Second Hand.
- الاستغلال الأمثل للموارد المتاحة.

٢-١-٣ المكون الاجتماعي لثقافة الفقراء

يعتمد المكون الاجتماعي للفقراء بشكل رئيسي علي المشاركة الشعبية الذي يجسده نموذج "الحارة"؛ فيتم تبادل الخدمات باستمرار بين أفراد ببعضها البعض ،فيستمدون منها جزءاً كبيراً من اكتفاؤهم الذاتي، وكذلك تكافلهم وأمنهم الاجتماعي.

أما استغلال وقت الفراغ كأحد وسائل التكيف الثقافي وغيرها من طرق الاجتماع المختلفة؛ فالمقاهي والحمامات قديماً بمثابة

شكل(٤): صور لمهنة الجزمجى-أو الإسكافى، ففى مجتمعات الأغنياء لا يوجد "الجزمجى" الذى يصلح الأحذية لأنهم يتخلصون منها بمجرد مرور عدة أشهر عليها حتى لو كانت سليمة، أما فى مجتمعات الفقراء فمهنة "الجزمجى" مهمة وأساسية.

شكل (٥): بائع حلى شبية بالتقليد.

شكل(٦): صورة لعربات الباعة الجائلين كأسلوب للاستغلال الأمثل للموارد المتاحة.

٤ ما عبر القرآن الكريم عن الفقر بتمييزه لدرجتين من الفقر يستحق أصحابها الزكاه وهو: "الفقراء والمساكين فالفقير فى الثقافة الدينية هو من يملك قوت يومه ولكنه يفتقر إلى أشياء أخرى كثيرة من الملبس والمسكن وغير ذلك، أما المسكين فهو من لا يمتلك شيئا مطلقاً. كذلك فإن مصطلح الفقراء-إلى الله- كان مرادفاً لمصطلح "المتصوفة"، وهو راجع إلى ضرورة الزهد فى الأشياء الدنيوية.

منتـدايات اجتماعيـة قـدمت حـلاً لمشـكلة غيـاب فراغات استقبال الضيوف والغربـاء في ظل صـغر مسطح الوحدة السكنية، وكذلك لإضـافة مزيد من الخصوصية علي محارم الدار.

شكل(٧) لمساكن الفقراء او الشعبية التراثية فى النوبـة بمصـر ويظهـر الإفتقـار إلـى المغـالاه فـي الإسراف والزخرفة، وعند الضـرورة يتم تبسيط وتجريد نماذج زخرفية عالية المعنى وغير مكلفة إقتصادياً.

٢-١-٤ المكـون المعمـاري والعمرانـي لثقافـة الفقـراء

لم تشهد بيوت العوام من الطبقة الشعبية بداية من العصر الفرعوني إسرافاً في الزخرفة؛ حيث استمر البناء الشعبي بنفس الشكل في العصور اللاحقة نتيجة للظروف المادية؛ فقد كان مبدأ البساطة هو أحد الثوابت الأساسية في عمارة المسلمين. وفي تقصي مفهوم الثقافة من الناحية الفلسفية نجد أن ممارسة الاختزال الوارد في مبادئ العمارة الحديثة فقد اختلف تماماً عم هو موجود في مرجعيتها الثقافية لمدننا الاسلامية التقليدية؛ حيث عُني بمعناه الأشمل والذي يختص بعملية فحص وتجريد واختزال كل ما هو زائد وكل ما ليس له ضرورة وأساساً من التواجد، وما يعتبر عبئاً علي كفاءة المنشأ وهو أمر لا يعني الرخص أو التوفر؛ بل تأتي البساطة في تأثيره علي استعمال وتنظيم حياة مستعمليه وتسهيل فهمه وإدراكه. وتقوم الجوانب المعمارية في ثقافة الفقراء أو السيطاء علي عدة مبادئ فحواها:

١. مبدأ اللقطة كنتيجة لإحياء ثقافة المستعمل[٥]
(الحفاظ على المـــوارد من خلال مفاهيم الإستدامة)

فى الإطار الذى دفعت به الشريعة الإسلامية الى تسهيل عملية الإعمار لكل فرد من أفراد المجتمع، حيث أوجبت على الحاكم او السلطة متابعة ذلك، من خلال الوسائل المتعددة التى اقرتها الشريعة، فقد شجع هذا الافراد وخاصة الفقراء منهم على ممارسة العملية البنائية ومنحهم فرصة الملكية بأقل التكاليف الممكنة وذلك لتفعيل وتعظيم دورهم الإيجابى والإنتاجى لخدمة مجتمعهم، وكثيراً ما سمعنا عن عمليات احتفاليات البناء[٦] Building Ceremony والتى يتم من خلالها تبادل الفقراء المساعدات البنائية ومشاركتهم فيما بينهم دون إضافة اى أعباء مادية تنفيذية- شكل (٧) – (٨).

[٥] مبدأ اللقطة أو الالتقاط بمعناه الأعم هو: "المال الضائع من صاحبه ويلتقطه غيره"، أو هو " كل مال معصوم معرض للضياع لا يعرف مالكه"، وهذه اللقطة يستحب التقاطها-أى أخذها- وقيل يجب، وذلك لصيانتها من التلف والضياع بعد الاعلان عنها لمدة تتناسب مع قيمة اللقطة واهميتها عند صاحبها، وإن لم يستدل على صاحبها جاز الانتفاع بها او التصدق بها.

[٦] إن مراسيم البناء هي الآلية الثقافية التى تربط البناء بالعملية التجديدية للمجتمع وما تربطه بطقوسه وإحتفالاته وتجدد إبداعات الناس وتساعدهم على توحيد مجتمعاتهم وتجديد طاقاتهم الخلاقة فى إطار ربط العملية العمرانية بالمجتمع .

ويمكن ملاحظة ذلك من خلال عمليات إعادة استخدام مواد البناء القديمة والمفككة وتجميعها مرة أخرى للبنايات الجديدة، وتتجلى هذه الظاهرة فى أبرز العمائر الإسلامية وخاصة فى المساجد حيث نجد أن المسلمين إستعانوا بمواد بناء التقطوها من المبانى الأثرية-الفرعونية والرومانية، وترجع هذه الظاهرة إلى مبدأ اللقطة فى الشريعة[٧].

أى أن إعادة استخدام موارد الأمة من مواد البناء مرات ومرات في مباني مختلفة والاستفادة منها بأقل تكلفة بدلا من أن تلقى لهو دليل على الاستغلال التام لموارد هؤلاء الفقراء[٨]- شكل (١-٣٩)

١ ٢

شكل (٨): إن إلتقاط وجمع الناس لمواد البناء المهملة واستخدامها بطريقة تؤدى الغرض يعد احد التطبيقات العملية فى المجال العمرانى لمبدأ اللقطة، حيث انها دليل على مثابرة إفراد المجتمع للوصول لافضل حل فى حدود طاقاتهم وباقل تكلفة ممكنة، فالصورة(١) توضح احد الاعمدة الملتقطة من معابد رومانية واعادة استخدامها كعنصر انشائي فى احد المساجد، والصورة (٣) لعتبة مدخل مدرسة الصالح نجم الدين بالقاهرة، وقد اخذت من احد العمائر الفرعونية القديمة.

٢. الحق فى السيطرة على علو الطريق:
(انعكاس مبدأ النسيج المتضام على المعمار الشعبى)

لقد كان هناك توافق تام بين ارتفاعات البوابات والأبنية العامة وبين حق الطريق، وهو ما أكدت عليه مبادئ الفقة الإسلامي فى تناولها لأحكام البنيان عندما تعرضت لبناء بعض العناصر والوحدات على الطريق، كالبوابات والحجرات والرواشين[٩] والساباط التى يبنيها من يحق لهم بناؤها فوق الطريق[١٠]، وتتيح هذه الطريقة توفير مساحات اضافية فى الطوابق العليا، وذلك بالبناء على جانب الشارع مع ترك ممر يسمح للمارة باستخدام الشارع بشكل عادى ويمنع اعاقة المرور فيه.

٧ أجمع الفقهاء على اعتبار الشئ المفقود ملكاً لصاحبه ولكن بشروط حددها الرسول(ص) فى حديث له حينما جاءه رجل فسأله عن اللقطة فقال الرسول(ص): "أعرف عفاصها ووكاءها ثم عرفها سنة فإن جاء صاحبها وإلا فشأنك بها"، ولن هناك استثناءات للقاعدة ومنها المحقرات وهى أن فاقده لايكثر أسفه على ما فقد مثل كسرة الخبز، وهذه المحقرات يجوز التقاتها وملكيتها.

٨ جميل أكبر عبد القادر: عمارة الأرض فى الإسلام صـ ٦٨.

٩ الرواشن جمع الروشن وهى أن يخرج اخشابا إلى الدرب وبين عليها ويجعل عليها قو ائم من أسفل.

١٠ الساباط:"سقيفة بين حائطين تحتها طريق،وجمعها ساباطات"٠(منزلى الكريدلية وآمنة بنت سالم).الروشان:"الجناح أو الظلة الناتئة عن الجدار إلى الطريق ومعلقة فى الهواء"٠

وللساباطات والرواشين فوائد كثيرة على البيئة العمرانية، فمن الملاحظ أن أكثر المناطق استخداماً فى الشوارع هى الأماكن تحت السابطات لأنها مظللة-حيث تقلل من المساحات المعرضة للشمس (فائدة مناخية)، هذا بالإضافة إلى أنها توسعة للناس إذا ضاقت عليهم منازلهم-دون الإضرار بالآخرين-(فائدة للصالح العام)،كما أنها تربط المبانى بعضها ببعض لتكون كتلة واحدة فيسند كل مبنى الآخر-الوحدة-(وظيفة بنائية)[١١].

وهذه الحلول العمرانية ليست تخطيطاً مسبقاً من الدولة او السلطة ولم تتأتى من فكر المهندسين وأنظمة المخططين، ولكنها حلول نبعت من تجارب السكان المستوطنين أنفسهم المعاصرين لإمكانيات بيئتهم وإتفاقاتهم حيث يسعون الى إيجاد الحلول لها، ومن خلال تراكم هذه التجارب تبلورت الأعراف .

وحثت الأحكام الفقهية على دعوة الناس الى إصلاح الطرقات بصفة عامة، لكنها كلفت من تسبب فى اعاقة الطريق برفع الاعاقة، فإماطة الاذى شعبة من شعب الايمان، وقد إحتاجت الطرق الغير مبلطة الى قطعها من فترة الى أخرى لإرتفاع منسوبها الناتج من تراكم كميات مضافة من الاتربة وغيرها، كما انها كانت تحتاج الى الإصلاح لتأثر تسوية هذه الطرق بالعوامل المختلفة كالمطر ومخلفات الهدم والبناء وهو أمر إهتم به المشرفون على أمر شوارع المدينة الإسلامية[١٢،١٣].

وتوافقاً مع احترام خط تنظيم الطريق لجأ المعماريون فى المدينة الإسلامية لربط منشآتهم على جانبى الطريق الواحد، وذلك بإقامة عناصر إتصال وحركة على إرتفاعات لا تضر بالمارة بالإضافة إلى توفيرها مناخاً ملائماً للأجواء الحارة حيث زيادة مسطحات الظلال، وهو ما يسمى بـ"حق الإتصال والعلو" . والشكل (٩) يوضح هذه العناصر.

وقد حدد الفقهاء هذا الإرتفاع بإرتفاع شخص يحمله جملاً ليمر بسهولة أسفل البناء ويكون هناك فراغ يعلوه يؤمن سلامة المارة [١٤]، كما ارتفعت الأبواب الرئيسية المؤدية إلى داخل المدن ارتفاع فارساً راكباً جواده ورافعاً رمحه، ومن ثم تكون مقاييسها أكبر من مقاييس العناصر والوحدات الاخرى التى تبنى فوق الطرق الداخلية حيث تمثل بوابات المدن أكبر المنافذ التى تبنى علي طرقاتها الرئيسية.

فالذى صاغ الطريق فى العلو هو المجتمع نفسه فى إطار مبدأ انتفاءالضرر، حيث أن القرارات العمرانية والمعمارية المنفذة لم يكن يتم أخذ إذن مسبق من السلطات بها.

١١ جميل اكبر عبد القادر : عمارة الارض فى الاسلام ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ، صـ٣٢٢ .
١٢ عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية ، صـ١٩٩ .
١٣ د.نللى حنا: " دراسة اجتماعية معمارية"، بيوت القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، العربى للنشر والتوزيع ١٩٩٣،ص١٨٣.
١٤ إبن الرامى: الاعلام باحكام البنيان، تحقيق: عبد الرحمن بن صالح الاطرم ، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٣هـ ، صـ٣٨٩.

٣. الحق فى إمكانية الركــوب للبناء:
(انعكاس مبدأ النسيج المتضام على المعمار الشعبى)

الركوب هو: "التعبير المستخدم للإشارة إلى اقامة جزء من مبنى فوق مبنى مجاور"، وقد نتج هذا عن تزايد عدد المستخدمين لمنزل ما، والحاجة الى زيادة المساحة والتى تتغير من جيل الى جيل حسب عدد سكانها وأحوالهم المالية أو رغباتهم الشخصية، وذلك ببناء أجزاء جديدة، وكان الركوب يتيح إمكانية بناء غرفة إضافية أو جناح فوق سقف مجاور بعد الحصول على موافقة المالك، وكسب مساحة تكميلية فى حى ربما كانت أراضى البناء فيه نادرة.

وقد سهل الفقه أسلوب البناء هذا مما ساعد على انتشاره لأنه كان يجعل من الممكن شراء أو الحصول على حق البناء فوق سقف مبنى مجاور، وكانت تلك الممارسة تسمى فى مصطلحات الفقهاء "بيع الهواء"، وهى تتمثل فى بيع حق الاستخدام، وهذا التداخل أو الركوب يرجع إلى العصر الايوبى، إذ تشير حجة وقف أيوبية نشرها حسين محمد ربيع إلى ركوب خاص بدار تقع بحارة الروم السفلى بالقاهرة.

كما شجع من تلك الإمتدادات إرتباطها بالتصميم المعمارى للبيوت بل والمبانى بوجه عام، فتعدد مستويات الأرضيات والسقوف فى طابق واحد، بل فى غرفة واحدة يجعل من السهل بناء غرفة إضافية متصلة بالمبنى الأصلى، فلم يكن من الضرورى أن يكون مستوى أرضية المبنى القديم والجديد واحداً ١٥.ومن أمثلة الركوب الباقية فى القاهرة طريقتان، أبسطهما فى بيت إبراهيم أغا مستحفظان بباب الوزير- أثر رقم ٤٥ - (١٠٦٢هـ-١٦٥٢م) – شكل (٩).

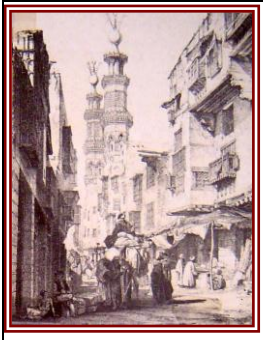

شكل (٩): صورة لراحلة محملة شكلت المعيار الرئيسى فى تحديد ارتفاعات الاسبطة والرواشين على الطريق العام فالعبرة فى العلو بسعة الطريق لأعلى ما يمر به بناء على متطلبات الحياه فى ذلك الوقت واختلفت ارتفاعات مبانى المدينة الاسلامية بناء على تدرج مستوى الطرقات نفسها فلم يكن هناك قانون موحد يحكمها .

[١٥] نيللى حنا ، "بيوت القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر-دراسة اجتماعية معمارية،العربى للنشر والتوزيع ١٩٩٣ ،صـ١٨٣.

٤. الحق فى استخدام حائط الجار المشترك
(انعكاس مبدأ النسيج المتضام على المعمار الشعبى)

إن ثقافة الجدار الواحد المشترك تعد مرجعية بنائية هامة فى المدينة الإسلامية، فقد تميزت البيئة العمرانية أيام الرسول (ص) فى العهد الأول بالإسلام بالحوائط المشتركة بين الجيران، وكان حائطاً واحداً يكفى للفصل بين المبانى-وهذا كما هو حال معظم المدن الإسلامية القديمة.

ويكشف هذا التوجيه عن نظرة اقتصادية ترمى الى تقليل تكاليف الإنشاء بتوفير تكاليف إنشاء الجدار التى تحمل السقف إذا ما أمكن وضع الخشب على جدار الجار، كما أن يكون أدعى إلى تلاصق المبانى والمتجاورات السكنية تحقيقاً لهذا الهدف، ومن الناحية الاجتماعية فان تطبيق ذلك يؤكد على تأكيد العلاقة بين جدران الجنب[١٦]، وقد حمل المالكية هذا الأمر على سبيل الإحسان و ليس الإلزام، لتعارضه مع مبدأ الملكية، والبعض حمل الضمير فى جداره على صاحب الجذع، أى لا يمنعه أن يضع جذعه على جدار نفسه ولو تضرر به من جهة منع الضوء أو الهواء مثلاً-وذلك من باب الحفاظ على حقوق الملكية[١٧].

إن هذا الجار السابق فى البناء كان يوماً ما لاحقاً فيه بالنسبة لمن جاوره من الجهة الأخرى والأسبق منه فى البناء، وقد حاز على هذا الحق منه. وهكذا ليصيغ المجتمع بيئته الخاصة دون تدخل من أنظمة أو فرق خارجية-إلا فيما ندر- وهذا هو أساس التواجد المستقل، وهو ما يفسح الإمكانية إلى التعاضد فى المنفعة المشتركة بين البشر. شكل (١٠) وشكل (١١).

شكل رقم(١٠) لبيت ابراهيم أغا مستحفظان بباب الوزير محاط من ثلاثة جوانب وله واجهة واحدة ويرتكز جزء من البيت فى الطابق العلوى على الطابق الارضى للمبنى الواقع شرقا بناء على موافقة الجار.

شكل (١١) يوضح إمكانية إشتراك الجارين المتلاصقين فى حائط واحد فاصل بينهم.

[١٦] وكما يقول فتحى الدرينى تعليقاً على هذا الحديث: "يجبر المالك قضاء على تمكين جاره من الإرتفاق بحائطه عند الحاجة، فمنع المالك جاره أن يرتفق بجداره حالة إحتياجه إلى ذلك يعتبر تعسفاً فى إستعمال حق الملكية، إذا لم يلزم من ذلك ضرراً بين يعود على المالك، لأن المنع عندئذ مظنة قصد الإضرار أو العبث، إذ المفروض أن تصرف المالك فى هذه الحالة دون مصلحة يستجلبها أو مفسدة يدفعها، والقصد إلى الإضرار ممنوع والعبث لا يشرع..."فتحى الدرينى : فى نظرية التعسف فى إستعمال الحق ، صـ١٥٥.

[١٧] فتح البارى لشرح صحيح البخارى .

٥- مبدأ إعادة استخدام الفراغات وتعدد وظائفها
(المرونة والتغيير فى الفراغات متعددة الوظائف Multi Purpose Units)

تؤدى زيادة الكثافة السكانية فى الاحياء التقليدية والتزاحم داخل الحجرة الواحدة الى التقارب بين المساكن وضيق مساحتها، مما يؤدى الى زيادة فى التفاعل والاحتكاك من خلال استخدام مناطق مشتركة ومتداخلة أمام وبجوار مساكنهم، فتقوم الخلافات حول تلك المناطق المشتركة التى تم احتلالها، وكل هذا يخلق جواً خانقاً يفضى الى القلق والتوتر وزيادة معدلات المعارك، وخاصة بين الأطفال والنساء، وتزداد هذه المشكلة عندما تكون هناك خدمات مركزية يتشارك فيها الجميع، مثل وجود دورة مياه أو مغاسل عمومية، مما يجعل أو يخلق من ممارسة الفرد لحياته بحرية تحدياً يساهم فى إبداع الفقراء لنمط مختلف من التكيف مع الموارد المتاحة فى تحقيق الملائمة الإنتفاعية المثلى للمسكن . شكل (١٢).

وكان اختلاف ظروف الناس الاقتصادية والاجتماعية عاملاً هاماً فى الفصل بين مختلف النشاطات التى تجرى فى البيت، فنتيجة للافتقار إلى الإمكانات المادية، كان يتعين على السكان تغيير وظيفة المكان لكى يتفق مع إحتياجات الساعة وبالطبع مع متطلبات المساحة[١٨]، وهذا يمثل فارقاً هاماً بين البيوت المتوسطة من جانب، والبيوت الكبيرة من جانب آخر، والذى تمثل فى استخدام المساحات الداخلية وعليه فإن الحيز فى البيوت المتوسطة أو المتواضعة كان أكثر مرونة منه فى البيوت الكبيرة، فكانت بيوت البسطاء تبنى لكى تظل قائمة من أجل عدة أجيال متعاقبة، وهذا قد يتطلب من سكانها إجراء تعديلات دائمة عليها فى كل العصور حتى تتلائم مع إحتياجاتهم المستقبلية، وذلك فى ظل البنية الشرعية المستمدة من أحكام الدين الإسلامى التى لم تمنع تقسيم البيوت ودمجها، وكذلك بالتغييرات التى كان يتم إدخالها على بنية المبنى، حال إحتياج الأسرة إلى إضافة غرفة للمسكن الذى تشغله، أو فتح باب أو شباك، أو سد أياً منهما، أو تغيير وظيفة الحجرة. وهو ما يطلق عليه "التصميم بالمطرح وهذا المبدأ الأساسى يعتبر من أهم المبادئ المشكلة لعمارة الفقراء، وهو ما يتلائم مع رؤيتنا حول حلول جذرية لمشاكل التصميم للفئات المتوسطة ومحدودى الدخل.

---

[١٨] ولعل فكرة التقسيم التقليدى للبيت الإسلامى من خلال تخصيص مساحات خاصة للإستقبال وأخرى للإقامة لم يكن مطبقاً بالدقة التى نتصورها على عمارة هذه الفئة من الدور، بل كان على ما يبدوا قاصراً على عمارة القصور أو البيوت الكبيرة، بينما نجد أن تقسيم الفراغ مختلف إلى حد ما فى البيوت المتوسطة أو المتواضعة، حيث يمكن تحويل غرفة معيشة Living Room فى المسكن الخاص إلى مكان عام وفقاً لإحتياجات الساعة، ثم تعاد إلى حالها الاصلى كمكان عائلى بعد انصراف الزوار.

شكل(١٢) يوضح التباين بين اسلوب الجلسة العربى وطريقة الأكل جلوساً على المائدة (الطبلية) والكراسى والسفرة العصرية، فتراثنا العربى يعتمد فى مضمونه على المرونة فى إستخدام الفراغ الواحد لأكثر من وظيفة والتمييز بين الفراغات قليلة الاستخدام وعدم المغالاه فى مساحتها مثل غرف الطعام الخاصة بالضيوف وبين الفراغات كثيرة الاستخدام كصالة المعيشة التى تعتبر محوراً لحياه الاسرة ومكان لكثير من الانشطة.

والجدول التالى يوضح إنعكاس المكون المعرفى لثقافة الفقراء على المبدأ العمرانى.

المكون المعرفى لثقافة الفقراء	إنعكاس المكون المعرفى على المبدأ العمرانى
ثقافة الميل إلى الأساطير والخوارق لحل المشاكل والأزمات الحياتية	سيطرة الدين الشعبى و مبدأ اندماج أضرحة أولياء الله الصالحين داخل الإطار السكنى للحارة
ثقافة الإكتفاء بالقليل	مبدأ الإقتصاد وعدم المغالاه فى الزخرفة والبساطة فى التشكيل
ثقافة الكمية والسعر قبل الجودة	مبدأ البناء بالمواد المحلية كالطين والطفلة
ثقافة إنتشار ثقافة المستعمل	مبدأ اللقطة وبيع مواد البناء ناتج الهدد والمهملة
ثقافة الإستغلال الأمثل للموارد المتاحة	مبدأ إعادة إستخدام الفراغات وتعدد وظائفها
ثقافة الميل إلى الترابط الاجتماعى والمشاركة الشعبية	مبدأ النسيج المتضام من خلال:- ١. الحق فى إمكانية ركوب البناء ٢. الحق فى إستخدام حائط الجار للتسقيف ٣. الحق فى السيطرة على علو الطريق ٤. ظهور عمائر المنتديات الإجتماعية والتشارك فى المرافق المشتركة

- **النتائج المستخلصة:**

١. بإعتبار أن فهم (البنية الثقافية) هو مقدمة طبيعية لفهم توجهات ومواقف المجتمع المختلفة من أى ظواهر تواجهه، فإن الكشف عن المكونات والعلاقات داخل النموذج الثقافى الذاتى الذى يخص مجتمعاً دون الآخر يعد محاولة جادة لإكتشاف الجذور المختلفة للظاهرة الثقافية دون أن نرهق أنفسنا فى ملاحقة نموذج مرجعى ثابت مستمد من ثقافات أخرى[١٩]، وبالتالى فلا توجد حالة مرجعية من خارج (النموذج الثقافى) ذاته،وعليه فإن دراسة نموذج(ثقافة الفقراء) فى المجتمع

١٩ حيث فرضت المعايير العالمية وثقافاتها الغربية، والتى وضعتها المؤسسات الدولية المهيمنة والمرتكزة فى مفاهيمها على ظروف ورؤى العالم الغربى الغنى، قيمها المتناسبة مع طبيعتها وحاجاتها الإقتصادية والسياسية ومعطياتها الإجتماعية والبيئية، وأصبح الغزو الفكرى والثقافى يغير هوية المكان .

المصرى، هو النموذج المرجعى لذاته دون الحاجة إلى رده-قصراً على نماذج الوفرة كنماذج معيارية.

٢. النظرة الفوقية التى نظر بها المعمارى الشهير **حسن فتحى** لإنتاج **(عمارة للفقراء)** لم تنجح بعد فى التجاوب مع الثقافة المحلية لهؤلاء الفقراء لتتحول فلسفة معماره إلى طراز-استلهمه الأغنياء بعد ذلك- ليتم تطبيقه بدون وعى فى بقاع مختلفة دون إعتبار لتباين البيئات الثقافية والخصوصيات المحلية.

٣. إن دراسة **"ثقافة الفقراء"** هو أحد المدخل الهامة جداً لإنتاج ما يسمى بـ**(عمارة الفقراء)**، فعمق التجربة المصرية حضارياً وثقافياً إرتكزت على (الفقراء)، فصاروا بثقافاتهم هم المعين الأوضح للرصيد الثقافى والحضارى المتوارث، حيث أن المؤثرات الأخرى الوافدة والحديثة كانت أقل تأثيراً فى مجتمع الفقراء مقارنة بشرائح المجتمع الأخرى والتى تكونت لاحقاً بفعل التطورات الإقتصادية والسياسية عبر النصف قرن الماضى، كما أن تمثل النماذج الغربية لم يكن متجذراً على المستوى الشعبى، إذ مال النموذج الشعبى إلى الإختلاف عن غيره فى جملة من القضايا والاشكاليات مثل الموقف من الهوية أو التراث أو الوافد أو الدينى أو الإقتصادى أو غيرها من المتغيرات.

٤. أن من أخطر مكونات **(ثقافة الفقر)** الإيحاء بأنه لا يمكن النهوض بالإقتصاد المحلي إلا فى إطار منافسة ربحية وإشاعة إقتصاد السوق بوصفه المحفز الذى لابديل له إذا أريد لأى إقتصاد أن ينهض، ولذا فإن إهمال (ثقافة الفقر) تسببت فى قتل التطلعات والطموحات، وإستبدلت المعرفة الإقتصادية التضامنية بالمعرفة الاتصادية التنافسية الصراعية، الوضع الذى ترتب عليه على الصعيد العالمى الدخول فى صراعات اقتصادية دموية.

- **التوصيات المقترحة:**

١. ضرورة إعادة اكتشاف التراث الثقافي للطبقة الغالبة من عوام الشعب وتوظيفه في النظرية المعمارية المعاصرة وربط مكوناته الثقافية والروحية بالإطار الفلسفي العام الناظم للأسس الفكرية لأمتنا الإسلامية.

٢. مواجهة الغزو الثقافي الغربي بالبحث عن الذات كبديل للتبعية الثقافية والفكرية في العمارة والعمران، وتأكيد المرجعية المعرفية الفكرية الإسلامية وإحيائها في العمران المعاصر، ومقاومة هيمنة النموذج الحضارى الغربى على كل الإتجاهات الفكرية فى دول العالم النامية والفقيرة ، أم ما يعنى بالتخلص من التحيز لـ(نموذج الغير) بقدر الإمكان، وذلك من خلال لتأكيد على نسبية الحضارة الغربية مع دراسة الظروف التاريخية والثقافية المحيطة بظهورها وبروزها.

- **المراجع العامة:**

١. د.محمد عبد الستار عثمان، "نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية بمدينة القاهرة"، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ٢٠٠٠م.
٢. جميل عبد القادر اكبر: عمارة الارض فى الإسلام، دار الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٣.
٣. د.إسماعيل سراج الدين، "العمارة والمجتمع"، دار الجمهورية، القاهرة ٢٠٠٢.
٤. أشرف بطرس، "الثقافة والعمارة"، رسالة دكتوراة غير منشورة بكلية الهندسة جامعة القاهرة، قسم العمارة، ١٩٩٩.
٥. هشام محمد طاهر الليثى، "إسلامية العمارة"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الهندسة جامعة القاهرة ،سبتمبر ٢٠٠٥.
٦. د.خالد عزب، "فقه العمارة الإسلامية"، دار النشر للجامعات، القاهرة، ١٩٩٨.
٧. د.نيللى حنا، "بيوت القاهرة"، دراسة اجتماعية معمارية، العربى للنشر والتوزيع، ١٩٩٣.
٨. ثقافة الفقراء، تحقيق قناه النيل الثقافية، مكتبة الأسرة ٢٠٠٨.
٩. أندريه ريمون، "فصول من التاريخ الإجتماعى للقاهرة العثمانية"، ترجمة زهير الشايب، ١٩٧٥، ويليام لين، "المصريين المحدثون- شمائلهم وعاداتهم".
١٠. د.محمد الجوهرى وآخرون، "التراث الشعبى فى عالم متغير"-دراسات فى إعادة إنتاج التراث، ٢٠٠٧ عين للدراسات والبحوث الإنسانية.